

نفحة شرقية

في أدب غربي

للأستاذ عبد الرحمن صدق

كان شاعر الألمان وجوته ،
يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق
وشعره . فدرس العبرانية ولد من
مطالعة التوراة . وكان يهتز لها
لما يجده بها من أريج الشعر ،
وبخاصة قصة راعوث ، ووليد
الأنثى ، وهو يعتبر النشيد
نسيج رحته في الرقة وحرارة
الحب ، وكان يستروح منه نسمة
داقة تهب من بقاع كنعان ،



وتزامى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط
الرياض ومنابت الطيوب العاطرة . ويأس من بعيد زحمة المدن بيني
اسرائيل ، وفيها وراء ذلك جميعه بتخيل ديوان سليمان وأهبة ملكه .
ويقتل جوته من العهد القديم العبرى ، إلى عصر الجاهلية العربى .
حيث يقع على الكنوز المذخورة في المملكات . تلك القصائد المطولات
التي أحوزت الفوز بميدان النزال الأدبى في أسواق الشعر عند العرب .
وهو يمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين ، لا يرحلون في غارات
إثر غارات ، يؤججها ما بين قبائلهم من ترات وخصومات . ويقول
شاعر الألمان إن المملكات تحدته بأقوى بيان عن العصبية التي تربط
أبناء القبيلة الواحدة ، وعما انطبع عليه العرب من روح الاقدام
والبسالة ، والتحرز من العار والاستمسك بدرك النار ، وطلاب
المجد ، والتماس الفخار . وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدي
هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها ، بما يثبته من الأسى
والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء . ويزيد هذه القصائد العصماء
قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلبسها القارىء ولا ينكرها

على أن الذى شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد .
وغير خاف أن العالم المسيحى كان من أيام الحروب الصليبية ساء الرأى
بطبيعة الحال في صاحب الشريعة الإسلامية . وكانت الكنيسة تتجاهل
وجود القرآن وتحرم ترجمته ، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع
عشر ، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائماً بدحض

ما جاء به وتفنيد . ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة ،
وحرصاً على تركية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم . ثم برغ على
الأثر عصر الشك ، أو ما يسمونه عصر النور . وكان دعائه يحملون
على الأديان كافة حملتهم الشعواء ، ولا يريدون أن يروا في أصحابها
إلا دجاجة مغررين يزعمون للناس أنهم ملهمون . إلا أن الأحوال
تعدلت ، وانبرى بعض المحققين من جهاذة الغرب إلى هدم التخرصات
المكتسوبة إلى محمد في العالم المسيحى ، وكشوا سيرته الشريفة بروح
عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق في الموضوع فانجلي
لكل ذى عينين محمد رجل الدين ، الثابت اليقين في الله الواحد الأحد ،
وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصى الهند
إلى ربوع الاندلس . واطلع شاغرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد ،
وحيا فيه النبى العظيم والروح القوى الأمين ، حاطم الأصنام الداعى
إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع عتارات منه مأخوذة عن الترجمة
الألمانية . وظل طويلا يعمق في درسه إمعان الباحثين . وهو يشير إلى
أن القارىء الاجنى قد لا يحبه لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب
إليه ، وفي النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز في بيان تعاليم الدين
والم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون
بالغيب ، ويقومون الصلاة ، وما رزقناهم يتفقون . والذين يؤمنون
بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالاخرة هم يوقنون . أولئك
على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء
عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم ،

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير
سورة بعد سورة . ولا يرى جوته في هذا التردد والتكرار ما يراه
النقاد الغربيون . لأن النبى لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتتويج
في ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والأوهام ،
لاستحداث اللذة وادخال الطرب على الاسماع والاذهان . بل هو
بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وإنما هو نبى مرسل لغرض مقدر
مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو
إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها . فالكتاب
العزيز أنزل ليقتضى الناس الخوف والايمن ، لا للمجرد المتعة والاستحسان ،
وإذا ما عرض للقصص فليس المقصد الأول هو التاريخ والاخبار ،
وإنما ضرب الامثال للوعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تأليف قصة تمثيلية عن محمد ، وشرع فيها من أيام
شبيته فنظم منها مناجاة للنبى وهو بالليل وحده في الحلاء تحت السماء

واستأعاه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم في المسرح . وهو يذكر في هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكارا باقيا . وبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج عاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها ، ويغبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمن إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذي عرفه وأحبه في الشرق ؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعا وأى مقنع . ولكن الرجل أبى له نفسه الرحبة ألا يجتمع فيها الشرق السامي والشرق الآري كما يقولون : شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم ، وشرق الهند والفرس

قد أقبل الرجل يتعرف إلى الماثات والماثات من آلهة الهند ويشهد في التهاويل والصور أوثانهم الهائلة الخيفة ، واطلع على مطولات أساطيرهم ، واختار بين أناويه مذاهيبهم ، وتغجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم ، والتقاء الحضيض بالسموات في نظرم . وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الآلهة والراقصة) و (موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما

وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (يديا) التي وضعها للملك (دبلسم) على ألسنة الحيوان ، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الغليظة ، ونفوز أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة . أما هذه الحكايات عن كيلة ودمية فهي تقع موقع القبول عند الناس أجمعين ، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما إنطوت عليه من الحكمة العملية والخبرة بالحياة .

وكان شاعرنا الألماني في ذلك الاوان قد أوفى على الستين . ولكنه مجدد الشباب أبدا كالحالدين . وقد اختار لمطافه الأخير أدب فارس ، أدب الجنات والبساتين ، أدب الورد والبلايل ، والحب الحسي والوجد العلوي . ولقد استغرق جوته في هذا الأدب ونسى عالمه الخارجي وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين ، وقد اتخذ صاحبه ومرشده الديني في هذا الجو الشرق المشبع بالمتعة والحنين . وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي أرق شعراء الفرس الثنائين .

وزاد اعتزال جوته لما خوله ، وأبعد بفكره ، أهيالا بعد أميال . وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازي أبواب الشرق ، الشرق مهد الإنسانية ، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، إلى الوحدة والبساطة .

الساجية السافرة النجوم . وقد اقتبس فيها هذه الآيات في دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة : إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لنن لم يهتدي ربي لا كون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني يرى بما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، خيفاً وما أنا من المشركين . ثم أدار جوته حواراً بين محمد ومرصته حليمة . كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « على » ، وزوجه « فاطمة » بنت الرسول . وهو تصوير رائع لقوة هذا الانسان المبعوث من عند الله ، ووصف شعري لفيض الاسلام وسرعة ذبوعه ودخول القبائل والأمم فيه أفواجا أشبه ما يكون بالنبع في الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاذ ، ويزخر بما ينصب فيه من الروافد فتسع مجراه ويتنظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم نزل فكرة هذه الرواية ماثلة في مخيلة جوته حتى وضع مشروعه . وعلى مقتضاه بدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعوداً إلى الله تعالى الذي تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده . ويكشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين . ثم في الفصل الثاني يقوم النبي يناصره على بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلقى العطف من فريق ، والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وما رك في جبلته . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة . وفي الفصل الثالث يتنصر محمد على خصومه ويظهر الكعبة من الأوثان . وتستوى دعوته ديناً مقرباً ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولاً وفعلًا . ويظهر الرجل السياسي إلى جانب الرجل الديني . وفي الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتندس له السم امرأة من يهود خيبر تكلت أحماءها . والفصل الخامس والأخير يبلغ فيه محمد أوج كماله وتجلى عظمتة الروحية . ثم تعاوده عقايل السم فينقل إلى جوار ربه . . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع ، مما نأسف له شديد الأسف .

وقد كان جوته في مدينة « ويمار » - وهي الآن تكريماً له عاصمة الريخ الألماني - حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهور جيادهم ، ونزلوا بها ، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة . ولا تسل عن فرحة جوته بهم وحضوره صلاتهم

أن أذكرك يا مولانا حافظ وقد رفعت حيتي نحرها ، وتضوع الطيب من غداثها المهدلة المضخخة بالعنبر
« ولعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره ،
والذين تطوع لهم نفوسهم التعريض بهتانا بكفره ، أن كلمات الشاعر
لا تبرح حائمة حول جنة الخلد ، طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود ،

نعر بزة

« لله المشرق ، والله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا
« هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق . سبحانه له الأسماء الحسنی ،
وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيراً
« ينازعني وسواس النی . وأنت المعيد من شر الوساوس . فاللهم
اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم
« ومهما تفضلنا النزعات وتزين لنا الشهوات . فالنفس التي لا تذهب
في النی شعاعاً ولا تضعيغ ضياعاً ، لا تلبث بالادخار والآباء أن تتطابق
عارجة إلى أوج العلاء
« وللناس في ترديد أنفاسهم آيات من الشيق والزفير : هذا يفعم
الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجبة التركيب . فاشكر ربك
إذا بليت . واشكر ربك إذا عوفيت

منى أربع

لكما يسعد العرب في البداء ، راتعين في بحوحة الفضاء ، أولاهم
المولى ذر الخيزر العميم متا أربعاً :
أولى هذه المنى : العاهة . وهي زينة أروع من التيجان كافة . ثم
خيمة يتحملونها من مكان إلى مكان ، حتى ليعمروا كل مكان . ثم
حسام تبار هو أمتع من الحصون وشاهق الأسوار . ثم القصيد يؤنس
ويفيد ، ويسترعى أسمع الخرد الغيد

الحرية

« دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح ، وابقوا أتم في
بيوت المدر وخيام الوبر التي لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع ،
وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر
وما زينت السماء الدنيا بمصايح ، إلا هدى للناس في البر والبحر
ولتكون متعة للناظرين أبد الدهر كلما ولوا وجوههم قبة السماء .

عناصر الشعر

« كم العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاء العامة ويلذ سماعه
الخاصة ؟
« إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم . فإن الحب إذا مازج الشعر

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته
بأقرب وشائج القربى . حياة جياها هو أيضاً ، حياة نفس تتقبل
الوجود بمنتهى الحرية والمتعة ، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها
وبين الأرض . وتواجه التعصب والجلود بالتصوف الحي والاحساس
بالشمول . لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ . الممالك
تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منهما غير الغنا
بنجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسارها الخالدة . وكلاهما يقف
وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية — هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام
نابليون ، فلا تنخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب . إن جوته
لما أخذ بهذه المشابهة يهزها من أعماق نفسه . فهو يعلم ما لهذه اللحظة
من خطر . إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين .
وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني ، يحس بالشرق والغرب
يلتقيان فيه . وتضمهما دفقا كتاب واحد يخرج به للناس هو الديوان
الشرقي للؤلؤ الغربي .

وأبواب الديوان اثنا عشر باباً ؛ وهذه هي باسمائها الشرقية على
الترتيب : كتاب المغنى . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب التفكير .
كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا .
كتاب الساق . كتاب المثل . كتاب الفرص . كتاب الخلد . وفيما يلي
ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار :

نسيم الرحمة

« الشمال والغرب والجنوب أقطارها تتناثر بدداً ، وعروشها تنثر
وممالكها تنهار . فهاجر وامض إلى الشرق الطهور ، تستروح الطيب
من الآباء الطيبين . وبالحب والنشوة والنقاء يرد عليك ريعان صباك
كأنما تضع عليك من نبع الشباب السرمد الحضير عليه السلام .
« هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الانسانية
الأولى . إلى الأزمان التي تلت فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من
الله بلسان أهل الأرض . فلم يقدحوا فكرياً ولم يكذبوا ذهنياً . إلى تلك
الأزمان التي كانوا فيها يجولون السلف . وينهون عن كل دين غير دينهم
« أريد التلي من عصور الفطرة بأقها الممدود المحدود : فكر
قانع وإيمان واسع

« أريد معايشرة الرعاة في المتجفات ، والاسترواح في ظلال
الواحات ، والارتحال مع القوافل متجراً في الطرح والبن والمسك ،
طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضير

« وسيان أنجحت أو أنهيت ، فإن أغانيك يا حافظ تؤنسى في
وعاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذاً طرباً ،
وكأنما يوقظ بها النجوم الوسي ، ويرهب قطاع الطريق
« هناك في الشرق في ردهات حماماته وبين جدران خاته ، أريد

قارورة العطر

(لكي يتجيب اليك المحب بالعطر العبق ، ويزيد في انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . فلا بد له من عالم منها ليستقطر ملقارورة صغيرة ، قارورة مخروطة مستدقة كأملاك لكي تهدي اليك ، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يقعم حسنا ويزيد في متاعنا ! هيات . وتم هلكت أنفوس لا عداد لها في سيل غظمة تيمور)

لذة الوصال

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمر بطرفها . ونظرة التديم تلح عينه بالرضى وهو يحتسى كأسه . وما أحلى تسليم السيد الأمر يشملك بعطفه . وشعاع الشمس في الخريف ينعشك بدفئه . فليكن أحلى من هذه جميعاً في نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد بها كف الفقير في طلب الصدقة ، وتتلقى منك بالحد الجليل ما تجود به . فما أحلاها وقتند نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة في السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام .

مثل الريحانة

تحدثت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة ، فأنحت عليها الأمواج خفقاً وضرباً . ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيراً . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما . فاحتوتها الصدقة في حرز حرير . وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج الشاه درة تتألق حلوة اللع سنية البهاء

الربيع

من الحماقة التعصب للدين . وإذا كان الاسلام هو التسليم لله فقد وجب أن نحيا ونموت مسلمين : جميعين .

ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد . وإن كان في الديوان زيادة للسزبد . ولكن ضيق المقام يمنع من الافاضة . وفيما تقدم الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربي من الروح الشرق . والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وأذنت شمس حياته بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق

وهذا عجيب ، ولكنه من جوته غير عجيب فان ذلكم الرجل العامر بالحياة كان حتى ساعة أن حضرته الوفاة مولماً بكل مطلع للنور حسياً كان أو روحياً . وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الاستار ، وعينه إلى النافذة وهو يتمم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير : المزيد من النور ! المزيد من النور

عبد الرحمن صرقي

زاد نبراته حلاوة وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتلا لافيه كيت الخز كالباقوت فانما العشاق والندامى هم وحدهم من ترناح لهم وتهش لمجلسهم

كذلك يطيب في الشعر سماع صلصلة السيوف ودوى النقيرو لجب الوغى حتى إذا انجلى الحظ أبلغ أزهو دان الناس للبطل ، وغدا بينهم مؤلها بما أصاب من النصر المؤزر

ولا معدى للشاعر في آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى والتعرض لها بالهجاء . فما كان مثله أن يلقي القبيح المشنوم . بمثل ما يلقي الحسن المستحب .

وفاذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة . فقد أشاع البهجة والحياة بين الورى أجمعين . إلى أهد الآبدن

أسير :

(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل ، قوام سبط ، وأعطاف بضة لينة ، كأنما هي لحورية من جنة النعيم .

(أكانت هنا حقاً ؟ وأين مضت ؟ أجل ، هي بعينها التي جادت بهذا كله ، هي التي سمحت ثم ولت هاربة . لقد تيمنى وتركتني ما حيث أسيرها)

كتاب مطالعة :

(سفر ما أعجبه بين الأسفار ! ذلك سفر العشق . لقد أمعنت في مطالعته . بضع صفحات من اللذة ، وأبواب متفيضة في الألم . اختص الفراق بجزء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجيز . على مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيبة بحواش لا حصر لها ولا آخر)

سلام :

(واها ! ما أسعدنى !... كنت أتمشى خلال الحقول فاذا الهدهد بطفر في طريقي ، وكانت بغبى البحث هنا وهناك عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى الهدهد في اختيال ناشر تاجه متبخترا في هيئة المدل الساخر ، وإنه لسخر الحى بالميت . فقلت له : يا هدهد ! في الحق إنك لطائر جميل . إنطلق يا هدهد وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمينها ما حيث . وكذلك كنت يا هدهد من قل رسول الحب بين سليمان وملكة سبا ،

(فقال الهدهد : إن التي أنت موفدى لها ، قد أودعنى كامل سرها ، في نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا أعطيك على سعادتك . فأنت محب وأنت مجرب . ودرام الحب الزاهر مقترناً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)